الغزالى وعـــلم النفس

للأستاذ حمدى الحسينى

لست حديث العهد بالامام الجليل حجة الاسلام أبى حامد محمد الطوسى الغزالى . فقد قرأت له وقرأت عنه فى ماضى السنين قراءات كثيرة .

ولكننى شعرت بالأمس وأنا أقلب صفحات كتابه النفيس (إحياء علوم الدين) أننى حديث العهد بناحية جديدة من حياة الرجل العلمية وهى ناحية معرفته النفسية . فاندفعت إلى بحث هذه الناحية فى كتابه هذا بحثاً رجعت بعده معتقداً كل الاعتقاد بأن الرجل لم يكن مسلماً متصوفاً مجاهداً بقلمه ولسانه فى سبيل يقينه فحسب ، بل كان عالما نفسياً أيضاً بتأمله الذاتى الذى قضى فيه السنين الطوال مستعيناً بالعزلة الفكرية والخلوة الجسمية فى منارة جامع دمشق تارة وفى جوف الصخرة الشريفة فى القدس تارة أخرى . يتأمل فى ذاته ويدرس نفسه ، يحلل عواطفه وسلوكه وخواطره ونزوعه . ولا نعنى بقولنا أنه كان عالماً نفسياً ما نعنيه إذا قلنا إن فرويد أو ادلر أو يونج عالم نفسى . فالغزالى عالم اسلامى صوفى ذكى القلب عالى الهمة غزير المادة لمع فى سماء العالم الاسلامى وهى مليدة بغيوم الفوضى الدينية والاضطراب السياسى فرأى من واجبه أن يكون مصلحاً فانبرى للاصلاح الدينى يدعو إليه بالحكمة والموعظة الحسنة فدفعته الرغبة فى الاصلاح إلى التأمل فى النفس البشرية التى يريد إصلاحها فى الأمم الإسلامية المضطربة بين النزعات السياسية الداخلية القائمة بين طلاب الحكم من الفاطميين والعباسيين والغزوات العسكرية الواقعة على البلاد الإسلامية من قبل السلاجقة والصليبيين فرأى أن يبدأ بنفسه يتأملها فتكون نموذجاً لهذه النفوس البشرية الحائرة بين الحياة والموت تطاردها الحوادث فلا تدرى فى أى أرض تحيا ولا فى أى أرض تموت . فأوصله التأمل المتلاحق فى الوقت الطويل إلى معرفة حسنة ببعض الخصائص النفسية والطبائع الإنسانية ودراستنا لهذه المعرفة على نور علم النفس الحديث ترينا أثر المجهود الفكرى قواعد نفسية تتماشى جنباً إلى جنب مع القواعد النفسية الحديثة . وإخراج هذه القواعد النفسية التى وصل إليها الغزالى بتأمله وتفكيره وبحثه ودرسه ودونها فى كتابه إحياء علوم الدين ومقابلتها بمثلها من قواعد علم النفس الحديث ومصطلحاته هو الغرض الذى رمينا إليه فى دراستنا لهذا الموضوع الجليل .

ولنشرف الآن على مدينة طوس بخراسان فى منتصف القرن الخامس الهجرى فنرى فى بيت من بيوتها عائلة فقيرة يعولها رجل غزال ولكنه متدين متفقه رقيق القلب . يبكى ويتضرع كلما سمع عظة فيها تهديد أو وعيد ، يحس فى نفسه بالخضوع والانقياد لله ، ويحس برغبة التعبير عن هذا الخضوع والانقياد وعظاً وإرشاداً فيخونه جهله ومقامه الاجتماعى فيروح متمنياً على الله أن يرزقه إبناً واعظاً يسد به نقصه ويحقق بواسطته رغبة كبتها الجهل والفقر فى نفسه ، فمن الله عليه وضاعف فى المنة ، فرزقه بدل الولد ولدين فسمى الكبير محمداً وهو موضوع بحثنا ، وسمى الثانى أحمد وهو عالم كبير . حرك الوالد فى نفس الطفلين الخضوع والانقياد لله ونقل إليهما رغبته فى أن يكونا فقيهين واعظين . ولكن الوالد قد لحق بربه وخلف طفليه فى الحياة الموحشة المضطربة القاسية ضعيفين فقيرين فكفلهما صديق لوالدهما فقير غزال ، فأنفق الصديق الوصى على الطفلين ما تركه أبوهما من المال القليل ثم أدخلهما تحت ضغط الحاجة مدرسة ينالان منها القوت بصفتهما من طلاب العلم فى تلك المدرسة الخيرية التى أسسها الرجل العظيم نظام الملك فيما أسس من المدارس الكثيرة فى ذلك الزمان العصيب . كان الإمام أبو حامد الغزالى يشير إلى هذا بقوله : « طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله » . فأصبح الطفلان عالمين كبيرين وفقيهين عظيمين وواعظين خطيرين .

تعلم الإمام الغزالى فى طوس ثم رحل فى سبيل العلم إلى جرجان ثم إلى نيسابور حيث برع فى الفقه والمنطق والفلسفة فتولى التدريس فى المدرسة النظامية فى بغداد مرة من الزمن انكمشت بعدها نفسه عن العمل فترك التدريس وذهب إلى بيت الله الحرام فحج ثم توجه إلى بيت المقدس فجاور الحرم القدسى حقبة من الزمن عاد بعدها إلى دمشق فاعتكف فى زاوية بالجامع الأموى ولبس

الثياب الخشنة وقليل طعامه وشرابه ثم رجع إلى بغداد واعظاً مرشداً ثم عاد إلى خراسان ودرس بالمدرسة النظامية في نيسابور مدة يسيرة عاد بعدها إلى طوس فاتخذ فيها إلى جانب داره مدرسة للفقهاء وزاوية للصوفية وزع وقته وجهده عليهما حتى توفاه الله .

وما دمنا قد ألممنا هذه الألمامة العاجلة بحياة الغزالي فقد أصبح من الحق أن نعرض لهذه الحياة الحافلة بمواضع الدرس والتحليل على رغم قلة سنيها وضيق أفقها فندل على بعض ما فيها من مواضع تعين على فهم تلك النفسية التي انتزع منها الغزالي أقواله التي رأينا فيها قواعد نفسية تنطبق على قواعد علم النفس الحديث انطباقاً إن لم يكن تاماً في العرض والجوهر فهو تام ولا شك في الجوهر كامل في المعنى .

نحن وإن كنا لا نعرف عما في أيدينا من الكتب عن شخصية الغزالي في أدوار حياته المختلفة ما يكفي لتحليل شخصيته تحليلا نفسياً صحيحاً ولكننا نعرف جيداً أن والد الغزالي كان فقيراً جاهلا يشعر بالضعف فساقه الشعور بالضعف إلى الله القوي القادر (سبحانه وتعالى) فاعتصم به وخضع له وانقاد إليه واعتمد عليه ، فانتقل هذا الشعور من الوالد إلى الولد بالذات في حياة الوالد، وبالواسطة بعد وفاته، وقد قوى اليتم والفقر في نفس الغزالي الشعور بالضعف فزاد هذا الشعور غريزة الخضوع والانقياد تحركاً وغياجاً في نفسه فغدا سلبياً كل السلب ، فاصطدمت سلبيته بإيجابية الحياة ، وبهذا الاصطدام نشأت المعركة الهائلة بين هذه السلبية المسلحة بعقل من أقوى العقول وإرادة من أقوى الإرادات وبين الحياة الإيجابية الحافلة بالخير والشر والحلو والمر. رأى الغزالي ضعفه حقيقة ماثلة أمامه فآمن بهذه الحقيقة إيماناً تحول فيما بعد يقيناً آخذاً بمجامع قلبه مستولياً على جملة نفسه فدفعه يقينه بالضعف إلى الخضوع المطلق فسلك سلوكاً هو السلبية بعينها والإنهزام النفسي بذاته . وظل يتدرج في هذا السلوك السلبي حتى انقطع عن الدنيا انقطاعاً لا هوادة فيه واعتزل الحياة اعتزالا لا رجعة معه. ونحن لا يعنينا الآن من حياة هذا الرجل العظيم شيء أكثر من ذلك التأمل الذاتي الذي كان مكباً عليه متعلقاً به ممارساً له بإرادته الصميمة سواء احتك بالحياة أم اعتزلها ، وسواء اجتمع بالناس أم اختلى بنفسه دونهم . وما هذا التأمل الذاتي الدائم إلا التنفيس عن رغباته المكبوتة بشعور الضعف وما يتبع الشعور بالضعف من الخوف والخجل والخضوع والانقياد وإلا التبرير لهذه السلبية المستحكمة في نفسه المأزومة؛ وهو فوق هذا كله محاولات وتجارب لحل العقد النفسية التي كان يحس بها إحساساً مبهما كلما صدمه مطلب من مطالب الحياة ودهمته ضرورة من ضرورات المجتمع .

ويمكننا أن نجزم هنا بأن ذلك الاضطراب الملحوظ في حياة الرجل الروحية والجسمية ، المادية والأدبية هو مظهر واضح لهذه النفسية المصابة بالسلبية العنيفة في ذلك الزمن الإيجابي العنيف . أنظر إلى هذه السلبية ترها واضحة جلية في تصرفاته منذ نعومة أظفاره، فهو سلبي في انقطاعه عن التدريس في المدرسة النظامية في بغداد؛ وهو سلبي في تلك الجولة الطويلة العريضة التي قضاها بين مكة والقدس ودمشق حاجاً ومجاوراً ؛ وهو سلبي في اختلائه تارة في الصخرة المشرفة في القدس وفي منارة الجامع الأموي في دمشق تارة أخرى ؛ وهو سلبي في انقطاعه السريع عن التدريس في المدرسة النظامية في نيسابور ؛ وهو سلبي في إقامته الأخيرة في طوس بين مدرسة الفقه وزاوية الصوفية ورضاه بالحياة في هذه البلدة الصغيرة بعد أن لمع نجمه وعلا قدره فأصبح علماً من أعلام الهداية الأسلامية يهتدى به في تلك الظلمات ونوراً يقتبس منه في هاتيك الأيام الداجيات .

ويقيننا لو أن الغزالي كان إيجابياً مع فضل عقله وعلو همته لكان شأنه في الحياة غيرما نعرف وفوق ما نعرف ولكن شاءت الأقدار أن يعيش حياته سلبياً فتسوقه هذه السلبية إلى ذلك السلوك الذي لبس معه الثياب الخشنة وقلل من طعامه وشرابه وأرهق جسمه ونفسه بكل ما فيه إرهاق لذلك الجسم الضعيف وتلك النفس المتألمة . وانطوى على نفسه ذلك الإنطواء الذي بدأ في أبكر أيام طفولته وانتهى بانطفاء سراج حياته رحمه الله .

حمدي الحسيني